مفهوم القراءة في الفكر الإسلامي القديم

د. موسى طاهر
أستاذ حاصل على الدكتوراه
الجامعة: كلية الآداب، جامعة ابن زهر، أكادير
المغرب

شغل مصطلح "القراءة" حيزاً كبيراً في الدراسات النقدية القديمة والمعاصرة، وتناوله الدارسون من زوايا مختلفة، بحسب التوجهات والمرجعيات أضفي على الموضوع صبغة إشكالية تزداد اتساعا كلما تعمقنا أكثر في تفاصيله. فما القراءة؟

الحد اللغوي والاصطلاحي

الحد اللغوي:

يقصد بالقراءة في اللغة تتبع الكلمات المكتوبة نظراً، ويشترط ابن منظور في التتبع النطق، قال"قرأت الشيء قرآنا:جمعته وضممت بعضه إلى بعض(...) ومعنى قرأت القرآن لفظت به مجموعاً"[1].وأما مؤلفو المعجم الوسيط فقد سووا في المعنى بين النطق وعدمه، قالوا: "قرأ الكتاب قراءة، وقرآنا: تتبع كلماته نظراً ونطق بها. وتتبع كلماته ولم ينطق بها؛ وسميت (حديثا) بالقراءة الصامتة. والآية من القرآن:نطق بألفاظها عن نظر أو حفظ"[2].

وفي المعجم الفرنسي القراءة فعل "التعرف على الحروف وتجميعها بغية فهم العلاقة بين ماهو مكتوب وما هو منطوق"[3].

ومن خلال استقراء الدلالة المعجمية نستنتج أن القراءة هي:عملية تتبع الرموز اللغوية وضم لعناصرها من خلال عملية النطق التي يقوم بها القارئ. فالقول بأن شخصا يعرف القراءة، يعني أنه باستطاعته أن يربط صوتا بحرف وأن يعبر عن حرف بالصوت الذي يناسبه.

الحد الاصطلاحي:

اتسع مفهوم القراءة في الاصطلاح وتعمق فمثل اتجاهاً في إدراك دلالات المكتوب وتأويل الآثار عن طريق فعل تحاور وجدل بين النص والقارئ،"القراءة هي فك كود الخبر المكتوب، وتأويل نص أدبي ما"[4]، وتطور المفهوم فأصبح عند البعض مرادفاً للنقد، إن القراءة إشكال منهجي مرتبط بكيفية التعامل مع النص، إنها "فقه واستنباط واستنتاج واستخراج، أو هي مجمل عمليات البحث الصادق العالم في المفهوم والحكم والقضية،"[5]ولتصير القراءة في العصر الحديث عنواناً للاختلاف مع النص، "فهي تتباين بطبيعتها، عما تريد قراءته، وشرطها، بل علة وجودها وتحققها أن تكون كذلك أي مختلفة عما نقرأ فيه، ولكن فاعلة في الوقت نفسه، ومنتجة

باختلافها بالذات"[6]. ويعني ذلك تعدد الرؤى وزوايا النظر في التعاطي والتعامل مع النص أو الأثر الأدبي وتحليله على اعتبار أن النص كائن حي له شكل وهيكل وعناصر مكونة له تتفاعل وتتعالق فيما بينها لتشكل بنية متكاملة ديناميكية.

هكذا تحولت القراءة من القدرة على تعرف الحروف و الكلمات والنطق بها صحيحة، وهذا هو الجانب الأداتي فيها، إلى عملية ذهنية تشتمل على قدرات متنوعة أهمها: الإدراك، والتذكر، والاستنتاج، والربط، ثم التحليل والمناقشة، إنها قراءة ناقدة تحتاج إلى إمعان النظر في المقروء، تفكيكاً وتجميعاً وهدماً و بناءً من أجل عملية تركيب جديدة.

وما يميز هذا المفهوم، عدم انحصاره في مجال معرفي دون آخر. فقد أصبح اتجاهاً أو منهجاً قائم الذات وصالحاً في جميع أنواع الخطاب، ما دام كل منها يستدعي المراجعة والتقويم والتطوير، لمواكبة مسار الثقافة وهذا ما يؤكد مشروعية تعدد قراءات النص الواحد وأهميته في إضاءة جوانب النص بفضل تعدد زوايا اهتمام القراء وتنوع مقاصدهم[7]. فظهر على مستوى تاريخ قراءة النص الديني الإسلامي موضوع بحثنا قراءتان: قراءة تراثية، وقراءة حديثة، فما المراد بهما؟

– القراءة التراثية

تعبر هذه القراءة زمنياً، عن كل الفترات التي قرئ فيها النص قبل تبلور القراءات الحديثة للنص الديني"وهي التي قام بها المتقدمون، مفسرين كانوا أو فقهاء أو متكلمين أو صوفية"[8]، وارتبطت في بدايتها بالميلاد الأول للنص القرآني على مستوى شكله من حيث لغته ونطقه وكتابته، حين يقرأ في إطار الأحرف السبعة. يشير الزركشي إلى أن القرآن نزل بسبعة أحرف حسب اختلاف لغات العرب، والتي ترتب عنها اختلاف في قراءة القرآن، كما أشار إلى اختلاف العلماء حول مسألة "السبعة أحرف"بين من يعتبر المسألة تتعلق بتغيير صورته المتمثلة في شكله وحركته الإعرابية وتغيير معناه، وبين من يعني بها أن "يقرأ كل قوم من العرب بلغتهم وما جرت عليه عاداتهم من الإظهار،والإدغام، والإمالة، والتفخيم، والإشمام، والهمز، والتليين، والمدِّ وغير ذلك من وجوه اللغات إلى سبعة أوجه منها في كلمة واحدة"[9].

ويرتبط مفهوم القراءة أعلاه بالمفهوم الشائع والمتداول في اللغة، أي بالاختلاف حول نطق النص وكتابته، أو بشكله وليس بمضمونه. لكن سرعان ما تم تجاوز إشكالات هذه القراءة الأولى بعد تشكل المصحف العثماني الذي أقصى القراءات المختلفة فأجمع المسلمين على مصحف واحد. لتبدأ معه قراءة ثانية استهدفت هذه المرة مضمون النص، وقام بها علماء الأصول والفقه والمتكلمون والمتصوفة، وارتبطت عندهم باختلاف أنماط التعامل مع النص، واختلاف آليات قراءته(التفسير والتأويل).

– قراءة الفقهاء وعلماء الأصول

تبلورت القراءة عندهم في إطار الاختلاف بين المذاهب الفقهية الأصولية الأربعة: المالكي، الشافعي، الحنبلي، الحنفي، من خلال الاختلاف حول مسائل التشريع، وتمثل مصدر الاختلاف بينهم في تحديد العلاقة بين النص ومصادر التشريع الأخرى في مجال استخراج الأحكام، حين كان يرجح بعضهم القول بالمأثور؛ أي التركيز على النص الأول والثاني قرآناً وسنةً، في حين يرجح آخرون أولوية القول بالرأي المرتبط بالعقل، وهو ما ترتب عنه اختلاف في ما بينهم حول مسائل فقهية كثيرة[10]. بل قد نجد اختلافاً بين

فقهاء مذهب واحد حول مسألة معينة، كاختلاف تلاميذ أبي حنيفة معه في مسألة قراءة الفاتحة في الصلاة بغير اللغة العربية[11]. وعلى إثر الاختلاف بين المذاهب الفقهية في أدوات الاستنباط والفهم أدى إلى ظهور انقسام في القراءة إلى قسمين: الأول يستند "إلى الآثار المنقولة عن السلف وهي المعرفة بالناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين،"[12]ويطلق على هذه القراءة التفسير بالمأثور والثانية يطلق عليها التفسير اللغوي وتقوم"على المعرفة بعلوم اللغة بالتحكم في المعاني وعلوم النحو والصرف والبلاغة والأسلوب، وكل ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب،"[13] وتسمى أيضا بالقراءة بالنظر أو بالاجتهاد، بجعل اللغة وسيلة أساس لتدبر نصوص القرآن الكريم، ومعرفة معانيه المجازية التي يخفيها ظاهر اللفظ. وقد تطورت هذه القراءة لتصير منهجاً عند المتكلمين.

قراءة المتكلمين

تطور الاختلاف في مسائل الدين فانتقل إلى مجال العقائد، فظهر ما يعرف بعلم "الكلام"، الذي يعتبر منعرجاً مهما في تاريخ إشكالية القراءة قديماً وحديثاً. حيث تبلور عند علماء الكلام ما يسمى "التأويل" وهو آلية قرائية استعملوها في إطار التعامل مع المحكم والمتشابه من القرآن، ومادام منهجهم قائم على الجدل والمناظرة فمن المنطقي أن تظهر فرق كلامية مختلفة (المعتزلة – الأشاعرة)، ويعتبر المعتزلة* أهم فرقة كلامية اعتمدت التأويل في قراءة النص القرآني، فأعطت الأولوية للدليل العقلي في فهم آي القرآن على الدليل النقلي المرتبط بالروايات يقول القاضي عبد الجبار* :"لأن العقل به يميز بين الحسن والقبيح، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع. وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم، فيظن أن الأدلة هي الكتاب والسنة والإجماع. وربما أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر وليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب، إلا أهل العقل، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع فهو الأصل في هذا الباب"[14]، وفتحوا إمكانية التأويل لكل متشابه من القرآن يتعارض ظاهره مع العقيدة، فحاولوا وضع أصول عامة للتأويل تسمح لهم بتأويل آيات القرآن تأويلاً يتفق مع أصولهم العقلية في العدل والتوحيد، فاعتبر المعتزلة كل ما يدعم وجهة نظرهم محكماً يدل بظاهره، وكل ما يخالف هذه الوجهة اعتبروه متشابها يجوز، بل يحق لهم تأويله[15].

وعلى خلاف المعتزلة لجأ الأشاعرة* إلى قراءة وتأويل القرآن المتشابه اعتماداً على مبدأ التفويض، أي التسليم ببعض الأسرار الإلهية التي يعجز العقل عن فهمها أو التأول بصرف اللفظ عن ظاهره الراجح إلى احتمال مرجوح لدليل يقترن باللفظ فيصرفه عن ظاهره، وهذا الدليل يسمى عندهم "القرينة"، وأما صرف اللفظ عن ظاهره لغير دليل فلا يجوز عندهم ويعتبر من التأويل الفاسد.[16]

هكذا يتجاوز مفهوم القراءة عند المتكلمين مدلول التلاوة، بما هي فعل بسيط بموجبه يتحول البصر بين سطور المكتوب لاكتشافه والتعرف عليه، فالقراءة هنا ترتبط بالتأويل، ومن تم تصبح موضوع رهان بين من يجعلها استجلاء للمعنى الأحادي والحقيقي والأصلي للنص المقروء (الأشاعرة) وهي القراءة الأكثر تأثيراً منذ القديم إلى العصر الحالي في الشارع العربي الذي مازالت نسبة "الخطابيين" بتعبير ابن رشد تمثل الشريحة الأكبر في مجتمعنا، وبين من يفتحها على تعددية المعنى وتناسله(المعتزلة).

-القراءة الصوفية

تندرج بدورها ضمن التفسير بالرأي، معتمدة التأويل، وهو المنهج الذي ارتضاه الصوفية لجهدهم التفسيري، وتقتضي طبيعة وبنية التأويل عندهم توليد الاختلاف، حيث ظهرت فرق صوفية تختلف في ما بينها حسب مذهب التصوف ونوع الطريقة اللذين يترتب عنهما الاختلاف في قراءة النص القرآني. لكن تجمع هذه المذاهب الصوفية على أن للنص القرآني ظاهرا وباطنا، والباطن هو ما يمثل المعنى الحقيقي الذي يصل إليه القارئ الصوفي عن طريق رياضة روحية أساسها القلب وليس العقل، وتظل هذه القراءة وقفا على الأولياء والعارفين من رجال الصوفية[17]. ومن أبرز رواد هذه القراءة نذكر الغزالي(505هـ) ومحي الدين بن عربي(638هـ) فكلاهما يقرأ النص القرآني حسب ثنائية الظاهر والباطن، حين يبديان لكل آية معنيين: الأول ظاهر على طريقة الفقهاء وعلماء الأصول والثاني باطني على طريق أهل الإشراق والعرفان.

وبهذا تفتح القراءة الصوفية آفاقاً أخرى لإشكالية القراءة باعتمادها التأويل الصوفي الذي يقوم على أولوية التجربة الصوفية التي تتنوع وتختلف، ولكن تشترك في أولوية العمل على النظر العقلي الذي سيشكل مركز القراءة الفلسفية.

-القراءة الفلسفية

تقوم قراءة النص القرآني عند الفلاسفة على تعميق ثنائية الظاهر والباطن ولكن هذه المرة اعتمادا على مقولات فلسفية منهجية مستقاة من الفلسفة الأرسطية بعد انفتاح العرب على الثقافات الأخرى وازدهار ترجمة الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية، فيتحول النص القرآني إلى خطاب فلسفي تطبق عليه المقولات العقلية الفلسفية، خصوصاً في الآيات ذات الصلة بالعلم الإلهي، فنجد هذه القراءة تبحث عن علة الأولى للوجود، وتسلسل العلل، وأقسام النفس منطلقة من مبدأ غياب تناقض بين الفلسفة والشريعة، فالنظر العقلي لا يؤدي إلى مخالفة ما ورد في الشرع، فالحق لا يضاد بالحق بل يشهد له.[18]

ويعتبر ابن رشد (595هـ)، إلى جانب الكندي (256هـ)، وابن سينا (427هـ)، والفارابي (339هـ) من أبرز رواد القراءة الفلسفية للنص القرآني، حيث قرأ مختلف آيات القرآن في إطار مسألة التوفيق بين العقل والنقل، مؤكداً على أهمية التأويل العقلي في فهم النص، معتبراً التأويل من مهام الراسخين في العلم وهم الفلاسفة. وحدهم يعرفون معنى المتشابه من الآيات. يقول وهو يحدد منهج القراءة عند الفلاسفة الذي يختلف عن منهج الفقهاء وعلماء الأصول والمتصوفة: إن الفقيه "عنده قياس ظني والعارف عنده قياس يقيني ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي، وهذه قضية لايشك فيها مسلم ولا يرتاب بها مؤمن"[19]، وبذلك يصير التأويل العقلي المنطقي الآلية البارزة في القراءة الفلسفية في إدراكها للحقيقة الواردة في الآيات القرآنية، وهي بدورها تختلف من فيلسوف إلى آخر، كل حسب مذهبه الفلسفي ونظرياته في الوجود والمعرفة.

من خلال عرض مسار القراءة التراثية عبر التاريخ بالاعتماد على نماذج كبرى مثلت لها نستنتج أن هذه القراءة عبرت بوضوح عن وجود إرهاصات أولية لمفهوم القراءة بالمعنى الحديث، إذ ارتكزت في جوهرها على مضمون النص القرآني. وآليات استخراجه، بعد

أن تجاوزت الاختلاف القرائي الوارد في قراءة النص على مستوى الصوت بين القبائل العربية، واتجهت إلى قراءة المصحف العثماني المتفق عليه، واختلفت في فهمه وكيفية تأويله، حيث استطاعت هذه القراءة تطوير آلياتها بالانتقال من التفسير الذي ركز عليه الفقهاء وعلماء الأصول إلى التأويل الذي فاق التفسير في سبر أغوار النص وإدراك معانيه، كما بدا عند المتكلمين والمتصوفة والفلاسفة. ويعد التأويل مرحلة حاسمة في مسار قراءة النص القرآني، إذ ستصبح مرحلة ظهوره ونضجه المنطلق الأساسي والرئيسي للكثير من القراءات الحداثية كما سيمر بنا.

كما تعددت أسس ومناهج القراءة بين مختلف المشتغلين على النص القرآني، فالفقهاء وعلماء الأصول يؤمنون إيماناً لاريب فيه بالعقيدة ويسلكون طريق التفسير بالأثر وبالرأي في مسائل التشريع، بينما المتكلمون ينطلقون من الإيمان إلى التعقل، معتمدين منهج التأويل والاستدلال النظري وأساليب الجدل والمناظرة في تفسير مسائل العقيدة. أما المتصوفة فيتجاوزون ظاهر النص إلى باطنه، منطلقين من أثر المعنى القرآني على القلب، وتأكيد أولوية الذوق في فهم النص، ثم الفلاسفة الذين أكدوا حضور ثنائية الصوفية (الظاهر والباطن) في النص، لكن يتميزون عنهم بكونهم ينطلقون من التعقل إلى الإيمان، يقرؤون النص في إطار النظر العقلي المطلق.

هكذا جسدت القراءة التراثية الاختلاف والتنوع في آليات قراءة النص الديني، ويمكن القول بأن ثنائية "النقل"و"العقل" تشكلان حلبة الصراع بين اتجاهات القراءة التراثية، منذ بزوغ القراءة الأولى، واستمر هذا الصراع طيلة العصور اللاحقة عليها. وكان سبباً في ظهور قراءات أخرى في العصر القديم كما مر بنا، وفي العصر الحديث، حيث أثرت القراءة التراثية بصورة مباشرة في ظهور قراءات جديدة في العصر الحديث، منها من فضل العودة إلى تلك الاتجاهات القرائية التي غلبت النقل على العقل، ومنها من فضل العودة إلى القراءات التي ركزت على العقل وهمشت النقل، فما طبيعة ونوعية هذه القراءات التي تولدت عن القراءة التراثية في العصر الحديث؟ وما هي آلياتها؟

الهوامش:

1- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري)، لسان العرب، تح، عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم-محمد الشاذلي، د.ط، القاهرة، 1981م، مادة (قرأ).

2- أنيس إبراهيم، المعجم الوسيط،، دار المعارف، القاهرة، ط.2، د.ت، مادة (قرأ).[2]

3 - R .calisson et D .Coste « Dictionnaire de didactique des langues »Hachettes libraire,1976, p.312 .

4 - سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، د.ط. د،ت، ص100. [4]

5 - بير(جاك): القرآن وعلم القراءة، ترجمة وقراءة منذر عياشي، تقديم محمود عكام، دار التنوير، بيروت، مركز الإنماء الحضاري، حلب،ط.1، 1996، ص 7.

6- علي حرب، "قراءة مالم يقرأ،نقد القراءة"،مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء العربي، بيروت، العدد61/60، يناير/ فبراير،1989، ص 91.

7- رولان بارط وآخرون، نظريات القراءة من البنيوية إلى جمالية التلقي، تر،عبد الرحمان بوعلي،دار نشر الجسور، وجدة، ط. 1، 1995م، ص.67-68. وحسن حنفي: قراءة النص في:الهرمينوطيقا والتأويل،ط2، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء،1993 م، ص17-18.

8 - طه عبد الرحمان، روح الحداثة – مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية –، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان،ط2، 2009، ص 176.

[9]– الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تح، مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع، بيروت لبنان، د ط،، 2005.ص، 286.

[10]– ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة – ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت لبنان، ط. 1، 2004، ص. 478.

[11]– نصر حامد أبو زيد، الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط. 1، 2007، ص. 75 .

– ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ص.460.[12]

– ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ض.461.[13]

* – المعتزلة: اسم يُطلقُ على تلك الفرقة الكلامية التي ظهرت في الإسلام في أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) على يد واصل بن عطاء (80 هـ – 131هـ)، وسلكت منهجاً عقلياً صرفاً في بحث العقائد، وقررت أن المعارف كلها عقليّة حصولاً، ووجوباً قبل الشرع وبعده، وقد آمنوا بأصول خمسة وهي :التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* – هو قاضي القضاة عبد الجبار أحمد بن خليل بن عبد الله الهمذاني (395هـ – 415هـ)، من أئمة المعتزلة وشيوخهم. وأجمع الذين أرخوا له على علو كعبه في الاعتزال، ورث تراثا أنضجته عدة قرون من الجدل بين أصحاب المذهب والمنفصلين عنهم كالأشعري مؤسس المذهب المعروف باسمه، وابن الراوندي.

14– عبد الجبار،وأبو القاسم البلخي،والحاكم الجشمي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تح:فؤاد سيد،الدار التونسية للنشر،تونس، د.ط، 1974، ص.139.

15 – نصر حامد أبو زيد، الاتجاه العقلي في التفسير– دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة –،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط7، 2011، ص،164.

* – هي فرقة كلامية تنتسب إلى أبي الحسن الأشعري (260هـ–324هـ)، اتبع منهاجها في العقيدة عدد من فقهاء أهل السنة والحديث، فدعمت اتجاههم العقدي. ومن كبار هؤلاء الأئمة : البيهقي، والباقلاني، ولغزالي. وتقوم قراءتهم على أولوية النقل وتقديمه على العقل.

- 16– محمد أديب صالح، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي –دراسة مقارنة لمناهج العلماء في اسنباط الاحكام من نصوص الكتاب والسنة– المكتب الإسلامي، بيروت، ط.3، 1993.ج،1،ص.211 و212.
- 17– نصر حامد أبو زيد ،فلسفة التأويل– دراسة في تأويل القران عند محي الدين بن عربي– المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.7، 2011، ص 23 . 233.

18– ابن رشد، فصل المقال في تقرير مابين الشريعة والحكمة من الاتصال، تح، محمد عبد الواحد العسري، إشراف، محمد عابد الجابري، دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1997، ص 96.

–ابن رشد،المرجع السابق، ص [19]98